الدرس الثاني

حَمَلَة رِسَالَة

وهو درس نأخذه من قوله تعالى حين وصف هذا الداعية بقوله (رجل)، والحقيقة أننا لا نعرف عنه أكثر من أنه رجل مؤمن انطلق يدعو إلى الله تبارك وتعالى، وليس مهماً أن نعرف أكثر من هذا، لأنه لو كان ذلك مهماً لبيّنه وأشار اليه الله تبارك وتعالى، حتى تكتمل الفائدة المرجوة، والعبرة المقصودة من ذكر هذا الموقف في كتابه العزيز، لكن الفائدة كل الفائدة فيما ذكر الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، ولا أدنى فائدة –في حدود حياتنا وعقولنا– فيما سكت عنه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وكل الذي نعرفه عن هذا الداعية أنه رجل من عامّة الناس، ليس بنبيّ أو رسول، وليس بعالم أو راهب أو حبر، لكنه رجل استجاب لدعوة الرسل، وآمن بما جاءوا به من عند

الله تبارك وتعالى!! وهذا كل الذي نعرفه عن هذا الداعية الرباني وحسب. «وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه وسلطان، ولم يكن في عزوة من قومه أو منعة من عشيرته»[1]

وفي هذا أيها الداعية الحبيب درسٌ عظيم، وحجة ملزمة على من لم يأخذ العبرة، ويدرك حقيقة ما يرمي إليه ذكر هذا الموقف في كتاب الله العزيز.

والملفت للنظر في هذه القصة، قصة القرية التي أرسل الله إليها رسولين عززهما بثالث، أنّ الله تبارك وتعالى قطع الحديث عن هؤلاء المرسلين حين ظهر صاحبنا على مسرح الأحداث، فانظر إلى قوله تعالى وهو يصف الحوار الساخن بين هؤلاء الرسل وقومهم: ﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون. إذ أرسلنا إليهم أثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون. قالوا ما أنتم إلّا بشرٌ مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون. قالوا ربُّنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون وما علينا إلاّ البلاغُ المبين. قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليَمَسّنكم منا عذابٌ

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٩٦٣.

أليم. قالوا طائركم معكم أئن ذكّرتم بل أنتم قومٌ مسرفون﴾...إلى هنا ينتهي الحوار، وينتهي الحديث عن هؤلاء الرسل عليهم السلام، ليبدأ الحديث عن هذا (الرجل).....﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى....﴾ ويبقى الحديث مستمراً عن هذا الداعية حتى نهاية الموقف، بل حتى بعد أن منح الشهادة وأدخله الله الجنّة، وزيادة في تكريم هذا الرجل أنّ الله تبارك وتعالى قال: ﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنّا منزلين﴾.... سبحان الله ما أعظم مكانة هذا الداعية عند الله تعالى، ولعظمة هذه المكانة، لم يقل الله تعالى: وما أنزلنا على قومهم (أي الرسل الثلاثة). بل نسب القوم إليه وقال ﴿على قومه﴾. فقلت: هل في هذا تكريم وتفضيل لهذا الداعية حتى على الرسل الثلاثة عليهم صلوات الله وسلامه؟!

ثم إنّ الله تبارك وتعالى لم يشر إلى ما آل إليه أمر هؤلاء الرسل، في الوقت الذي فصّل فيه أمر هذا الداعية وما آل إليه حاله..﴿ قيل ادخل الجنّة قال يا ليت قومي يعلمون. بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين...﴾ وإذا دققت النظر قليلاً في كلمات الخاتمة تجد أنها جاءت خالية من حروف العطف، التي تفيد الترتيب والتعقيب مع المهلة قليلة كانت أو

كثيرة هذه المهلة...﴿قيل ادخل الجنة قال يا ليت .....﴾ .... وفي هذه دلالة واضحة على سرعة القبول والاستجابة لهذا الداعية الربّاني!!

***

«فهذا رجل سمع الدعوة واستجاب لها... وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتاً، ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور...»[1] فهو إذن من عامة الناس. لكنه مؤمن!! وكفى بالإيمان دافعاً، ومحركاً عظيماً للمسلم، كي يمارس دوره في هذه الحياة، ويؤدي وظيفته بين البشر، وهي الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، فمن لم يحركه إيمانه وتقواه، فلن يحركه أي شيء آخر، وإن حاز أعلى الشهادات، وتبوأ أعلى المراتب العلمية، وتخرج من أعرق الجامعات أصالة. ودرس على أيدي كبار العلماء وأفاضل الشيوخ. وتزيّا بزي العلماء!! كل ذلك لن يحركه قيد أنملة في ركب الدعوة إلى الله تعالى.... بل قد يكون وبالاً وحجر عثرة في وجه الداعين إلى الله..... وعصرنا

---

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب ٥/٢٩٦٣.

شاهد على أمثال هؤلاء..... المتخرجين من أفضل الجامعات عراقة وأصالة...الحائزين على الألقاب الفخمة والمناصب العليا..... المتصدرين للفتيا، ومجالس العلم والوعظ... الذين وقفوا في وجه الدعاة إلى الله تعالى.... في صف الطواغيت... الذين عظمت مكانتهم ورهبتهم في قلوب هؤلاء، بعد أن ضعف الأيمان فيها!!

ولا يتحقق النجاح والتوفيق في الأعمال العظيمة إلا على أيدي الذين يعتبرون أنفسهم أصحاب رسالة... يقول الامام حسن البنا رحمه الله: «وكانت العقبة الكأداء في سبيل نجاح الوضع الأول ندرة الصنف الذي يعتبر نفسه صاحب رسالة، لاطالب وظيفة بين الناس...»[1].

***

ولأن الإيمان وحده المحرك والدافع على الحركة بصدق وإخلاص، هو الذي يجعل صاحبه صداعاً بالحق. قوّالاً فعالاً في أشدّ المواطن حلكة وظلاما:

﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه﴾ كتم تخطيط ودهاء، لا كتم جبن وخوف وضعف، لأن موقفه

---

(١) مذكرت الدعوة والداعية، ص(١٠٧).

وصدوعه بالحق بين يدي وفي مجلس فرعون الطاغية المتأله يدل على قوته وجرأته، فها هو يقول: ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم، وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذّاب، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾.

لكن فرعون الذي أذهلته جرأة هذا المؤمن، صرخ في وجهه ووجوه الحاضرين ﴿قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾!!

فهل يسكت هذا الداعية المؤمن؟! وترتعد فرائصه خوفاً وجبناً تحت شدة الوعيد، ووطأة هذا التهديد، فتخبو في نفسه شعلة الإيمان؟! أم أنها تزداد توقداً وتوهجاً وقوة وثباتاً؟! ومضياً في طريق الدعوة إلى الله تبارك وتعالى؟! نعم هذا الذي يكون حين يكون الأيمان: ﴿وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعادٍ وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد، ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد. يوم تولّون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد﴾.... ويمضي الرجل في تذكيره ووعظه وصدوعه في الحق إلى أن يقول

فرعون الذي رأى عدم جدوى التهديد والوعيد مع هذا الداعية المؤمن فقال: ﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب: أسباب السماوات فأطلع على إله موسى وإني لأظنه كاذبا.....﴾، وكأنه يريد أن يبطل قول هذا الداعية ويصرفه عن قومه بالحجة والدليل، لكن الداعية المؤمن يمضي في دعوته غير آبهٍ بهذه الأقوال والادعاءات المتداعية: ﴿وقال الذي آمن﴾....انظروا كيف أنّ الله تعالى يكرر هذا الوصف في حديثه عن هذا الرجل ﴿الذي آمن﴾... وفي ذلك تأكيد على أهمية الإيمان.....الذي يدفع على القول بثبات وجرأة ووضوح، ماذا قال: ﴿يا قوم أتبعون أهدكم سبيل الرشاد. يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإنّ الآخرة هي دار القرار....﴾ ويستمر في وعظه ودعوته وتذكيره لقومه حتى يقول : ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار، تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار. لا جرم أنّما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردّنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار. فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد﴾.. ما أعظم الإيمان حين يستولي على قلب العبد ﴿وأفوض أمري إلى الله﴾ إيمان

وتفويض وتسليم مطلق لله تبارك وتعالى... فهو الذي خلق، وهو الذي بيده الحكم...وما أكرم الله تعالى حين يحسن العبد الظن فيه تبارك وتعالى:

﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوءُ العذاب﴾.

***

نعم أخانا الحبيب لأن الإيمان وحده الباعث على الحركة والعمل والدعوة إلى الله تبارك وتعالى... فلا تهونن من أمر نفسك..، ولا تحتقرن جهداً وإن قلّ تستطيع بذلة على طريق الدعوة إلى الله تعالى... فلا تتقاعس عن الدعوة الى الله من أمر بالمعروف أو نهي عن المنكر، بحجة أنك خريج معهد صناعي أو ذو مهنة صناعية أو أي مهنة أخرى لا اتصال لها بعلوم الدين والشريعة.. واعلم أن هذه حجة واهية... وحجة من لا يريد العمل... وحجة من نقص إيمانه.. وخارت قواه.. ووهنت عزيمته!! فتدارك أخانا زمام أمرك واحذر على دينك وإيمانك... وانطلق فميدان الدعوة ينتظر مقدمك بشوق ولهفة!!

انطلق أيها الداعية الطبيب لنشر رسالتك وتبليغها!! واحذر القيد!! إن حاملي (إيدز) الاخلاق والدين والقيم،

ينطقلون شرقاً وغرباً، يحطمون المناعات وينشرون الفساد، ويدمرون وينذرون بهول عظيم، فانطلق برسالتك في كل اتجاه، وحطم القيد والأغلال، لا تتوانى في الوصول لكل من تعرف ومن لا تعرف، حاملاً نبراس الهداية، وأمل النجاة بشيراً نذيراً، واحذر القيد، بل حطمه، حطم قيد الخوف والوجل!!.

أيها الداعية الطبيب انطلق واحذر قيد الانزواء والتقوقع على الذات والدوران حولها، انطلق وحطم القيد، «فلا يكون داعية اليوم إلا من يفتش عن الناس، ويبحث عنهم ويسأل عن اخبارهم ويرحل للقائهم، ويزورهم في مجالسهم ومنتدياتهم، ومن انتظر مجيء الناس إليه في مسجده أو بيته، فإن الأيام تبقيه وحيداً، ويتعلم فن التثاؤب»[1]، إن لذة الطبيب أيها الداعية الطبيب تكمن في تبليغه رسالته وأدائه أمانته، بمخالطته للناس وصبره على أذاهم.

وما أجمل أخانا أن تكون الطبيب الداعية!! والمهندس الداعية!! والفلكي والجغرافي والمخترع والمبدع الداعية!! والتاجر الداعية!! والمهني الحرفي الداعية!! كما كان السابقون الأولون من السلف الصالح رضوان الله

---

(١) المنطلق، محمد أحمد الراشد ص١٢٧.

عليهم..[1] ونحن لسنا بحاجة إلى حملة شهادة. بقدر حاجتنا إلى حملة رسالة... بل نحن بحاجة إلى حملة الرسالة الذين يجعلون كل ما يملكون ويحترفون في خدمة رسالتهم التي يحملون... ولا خير في حامل شهادة لا رسالة له..

ولا خير فيمن لا يكون سفير دعوته في كل مكان يحلّ فيه، أو يرتحل إليه، وفي كل مقام يشهده!! وآن لنا أن نعي قول الله تبارك وتعالى: ﴿قل هذا سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني...﴾ فالاتباع شرط القيام بالدعوة إلى الله تبارك وتعالى... وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (بلّغوا عني ولو آية)!

ولا عذر غداً لمن أهمل أو تقاعس.....

---

(١) لمزيد بيان وتوضيح، انظر: صناعة الحياة للأستاذ محمد أحمد الراشد.